آراء

مشاعر هولندية وجرائم تاريخية

أسامة الرشيدي

سارع المسؤولون الهولنديون إلى الإعراب عن مشاعر فيّاضة، وعواطف جيّاشة، دفاعاً عن مشجّعي فريق مكابي تلّ أبيب الإسرائيلي، وحزناً على ما حلّ بهم، بعد إثارتهم الفوضى والشغب والتخريب في العاصمة أمستردام، عقب مباراة فريقهم مع فريق أياكس الهولندي، في إطار منافسات بطولة الدوري الأوروبي لكرة القدم. تضمّنت هذه المشاعر، التي أعلنها المسؤولون الهولنديون، الرعب والخزي والمأساوية والحزن، وهي مشاعر عبّر عنها جميعها وزير الخارجية الهولندي كاسبر فيلدكامب، في بيان واحد فقط، بعد لقائه نظيره الإسرائيلي جدعون ساعر، عقب الأحداث، فقد نقل فيلدكامب لساعر أنه شعر مع زملائه المسؤولين بـ«الرعب» إزاء ما حدث، مؤكّداً أن بلاده ستبذل قصارى جهدها لتحديد هُويَّة «هؤلاء البلطجية»، ومتعهداً بمحاسبة «الجناة»، ومكافحة «معاداة السامية». كما وصف فيلدكامب ما زعم أنه عدم شعور اليهود بالأمان عند ارتداء القلنسوة في الأماكن العامّة بأنه «أمر مُخزٍ»، واعتبر أنه «من المأساوي أن نعتبر أن المعابد اليهودية والمدارس اليهودية وغيرها من المباني تحتاج إلى حماية خاصّة». وأخيراً، أكّد وزير خارجية هولندا أنه فكّر في هذه التطوّرات «بقلب مثقل بالحزن، ولكن أيضاً بعزيمة لا تتزعزع».

في مقابل هذه المشاعر السالبة، لم يغفل هؤلاء المسؤولون تأكيد مشاعرَ إيجابيةٍ للغاية انتابتهم خلال لقاءاتهم ومناقشاتهم مع نظرائهم الإسرائيليين. وكالعادة، كان لوزير الخارجية نصيب الأسد، فقد أعرب عن «سعادته» باستقبال نظيره الإسرائيلي (اليميني المتطرّف) في أمستردام، ثم عاد في نهاية البيان، وأكّد شعوره بالامتنان، لأنه تمكّن من الإعراب عن هذه المشاعر كلّها بنفسه، مشيراً إلى «تقديره» قدوم ساعر إلى العاصمة الهولندية. وبالطبع، لم يشر أيٌّ من المسؤولين الهولنديين إلى تاريخ جدعون ساعر المتطرّف، ولا تصريحاته العنصرية، ولا معارضته لحلّ الدولتَين، ولا رفضه فكرة إقامة دولة فلسطينية، حتى في حدود القدس الشرقية والضفة الغربية وقطاع غزّة فقط.

لم يقتصر طوفان المشاعر هذا على المسؤولين الهولنديين فحسب، إذ حرص هؤلاء على إبراز مشاعر نظرائهم الإسرائيليين أيضاً، فقد قال رئيس الوزراء ديك سخوف إنه التقى وزير الخارجية الإسرائيلي جدعون ساعر، موضحاً أن الأحداث «أثّرت» في ساعر «بشدّة»، وأن الأخير شاركه «مخاوفه الكبيرة واشمئزازه من تزايد معاداة السامية». كما حرص سخوف على وصف اللقاء بأنه عُقِد «في أجواءَ ودّيةٍ»، واصفاً الأحداث في أمستردام بأنها «نقطة تحوّل»، معرباً عن «التزامه الواضح بتقديم المجرمين إلى العدالة».

أما ملك هولندا، فقد تفرّد بمشاعر جديدة، فبعد التعبير عن «اشمئزازه العميق»، كشف شعوره «بالخذلان». إذ قال للرئيس الإسرائيلي إسحاق هرتسوغ، إن بلاده خذلت الجالية اليهودية خلال الحرب العالمية الثانية، وإنها فشلت مرّة أخرى في حماية جمهور فريق مكابي تلّ أبيب الإسرائيلي.

بالعودة إلى أحداث أمستردام، فإنه رغم توفّر عشرات الأدلة على أن جماهير مكابي تلّ أبيب هم من بدأوا أعمال الشغب والفوضى، إلّا أننا سنتجاوز عن هذه النقطة، وسنعرب عن تقديرنا لهذه المشاعر الهولندية الفيّاضة، لكنّ هذا لن يمنعنا من طرح بعض الأسئلة، أهمها: ما ذنب الشعب الفلسطيني فيما حدث لليهود الهولنديين؟ هل الفلسطينيون هم من سلّموهم للنازيين؟ أم أن السلطات الرسمية هي من فعلت ذلك وسهّلت تنفيذه؟ لماذا تقرّر دول غربية التكفير عن جرائمها بحقّ اليهود، من طريق ارتكاب جرائمَ بحقّ أممٍ وشعوب أخرى لا ذنب لها فيما حدث؟ وإلى متى تتحمّل فلسطين عبء التخلّص من العار الأوروبي تجاه اليهود؟

لتكن صفقة سياسية مع ترامب

محمود الريماوي

الانطباع أن عهد الرئيس الأميركي دونالد ترامب قد بدأ قبل أن ينتقل إلى البيت الأبيض لا يجانبه الصواب، فالسرعة في تسمية كبار المسؤولين في المراكز ذات الأهمية تشي بأن الرئيس الفائز على عجلة من أمره، وأنه لن ينتظر عشرة أسابيع كي يباشر مهامّه. سمّى سفيراً أميركياً وحيداً حتى تاريخه، ليس في موسكو أو في بكين أو في لندن، بل في تلّ أبيب، فالدولة العبرية تفوق في أهميتها (كما يبدو) أهمية روسيا الاتحادية، وجمهورية الصين الشعبية، والحليفة الأولى بريطانيا. السفير المُعيَّن يدعى مايك هاكابي، وهو حاكم سابق لولاية أركنساس. ورغم أن هذا الرجل لم يقدّم أوراق اعتماده بعد، ولم يحظَ بعد بالتصديق على ترشيحه في الكونغرس، إلّا أنه لم يتردّد في الإدلاء بتصريحاتٍ لإذاعة الجيش الاسرائيلي، متوقّعاً أن يواصل الرئيس المنتخب ما سمّاها «المساعدة في ضمان ضمّ الضفة الغربية للسيادة الإسرائيلية»، ورغم خدمة سابقة له قسّيساً، إلّا أن الرجل لا يكتم عنصريّته، وسبق له أن أنكر وجود شعب فلسطيني، ومع ادّعائه أنه سوف ينفّذ سياسة ترامب، إلّا أن ذلك لم يمنعه (ساعات فقط بعد إعلان ترشيحه) من إطلاق تصريحات سياسية تتطابق مع ما يتفوّه به الوزراء الأشدّ تطرّفاً في حكومة بنيامين نتنياهو حول السعي إلى الاستيلاء على الضفة الغربية المحتلّة، مع إنكار وجود شعب يرزح تحت الاحتلال. مع أن تسمية هاكابي سفيراً في تلّ أبيب تحمل إشارةً سيئةً، وتمثل بداية رديئةً، إلّا أنها تشكّل تحدّياً صارخاً للعالم العربي، يتطلّب الاستجابة له والردّ عليه، فقد جرت هذه التسمية فيما كانت القمة العربية الإسلامية منعقدةً في الرياض بمشاركة عشراتٍ من قادة العالمَين العربي والإسلامي، غير أن انتباه ترامب كان منصرفاً إلى تلّ أبيب وحدها، ما دفعه إلى المسارعة بترشيح هاكابي، الذي «يعشق إسرائيل» على ما قال الرئيسُ المنتخب. وبهذا، ومع الأيام الأولى لإعلان فوزه في الانتخابات، تبيّن أن الدولة العبرية حاضرةً في ذهن الرجل. ولم يتوقّف الأمر عند التواصل الذهني، فسارع نتنياهو إلى إرسال وزيره للشؤون الاستراتيجية، رون ديرمر، إلى واشنطن للقاء ترامب، وقد سبق للوزير الاستراتيجي نفسه أن التقى ترامب قبل إجراء الانتخابات، وفي ذروة الحملة الانتخابية. أمّا نتنياهو فقد تواصل هاتفياً ثلاث مرّات مع ترامب بعد الإعلان عن فوزه، وسبق أن التقيا خلال زيارة نتنياهو نيويورك (سبتمبر/ أيلول) الماضي، للمشاركة في اجتماعات الجمعية العامّة للأمم المتحدة.

من المنتظر والحالة هذه أن تتواصل الاتصالات الإسرائيلية مع أركان الإدارة الجديدة، وقبل أن تباشر عملها رسمياً، من أجل بلورة مواقفَ ومقارباتٍ مشتركةٍ يصار إلى إعلانها، والعمل على تنفيذها ما أن يبدأ ترامب عمله في البيت الأبيض (20 يناير/ كانون الثاني 2025). ومن غير المستبعد أن يدلي الرئيس المنتخب بتصريحاتٍ سياسيةٍ تعكس خطّ الإدارة الجديدة، وقبل أن يتولّى مهامّه الدستورية، فالرجل، وكما هو معهود عنه، لا يعبأ بما يعتبرها شكلياتٍ وتقاليدَ بيروقراطيةً، ويؤمن بأنه يحقّ للرئيس ما لا يحقّ لغيره. والخشية من أنه ما إن يحلّ الموعد الدستوري لاستلامه سلطاته، حتى يكون قد فرغ من تحديد سياساته، ولا يبقى سوى إبلاغ من يعنيهم الأمر بفحوى هذه السياسات، وشرحها بصورة موجزة، والاستماع إلى ملاحظاتهم عليها، تمهيداً للبدء بتنفيذها في أرض الواقع. إنه شيء أقرب ما يكون إلى سيناريو حرق المراحل، والاستثمار الأقصى للوقت بتسخيره لاهتبال الفرص المتاحة، وهو سيناريو إسرائيلي في الأصل، سوف يجري دفع ترامب للقبول به (وربّما الإعجاب به)، رغم أن الرئيس الفائز خصّ الأميركيين العرب، إلى جانب اللاتينيين وذوي الأصول الأفريقية، في خطاب الفوز بالتحيّة على وقوفهم معه في الانتخابات، ولم يأتِ على ذكر أيّ فضلٍ للوبي الإسرائيلي في فوزه المثير، غير أن ذلك لن يفتّ في عضد هذا اللوبي الممتدّ من تلّ أبيب إلى المراكز الأميركية، في شن هجوم محبّة على الرئيس الفائز،

> تستند طريقة ترامب في اتخاذ القرارات إلى مفهوم الصفقات، وليس إلى المعالجات السياسية

وتطويقه بالثناء، لأنه «لطالما ساعد في فرض السيادة الاسرائيلية» على الأراضي المحتلّة، وسوف يفعل ذلك حاضراً ومستقبلاً، وفق السيناريو الإسرائيلي، الذي يعبّر عنه أوضحَ تعبيرٍ الثلاثي بنيامين نتنياهو وإيتمار بن غفير وبتسلئيل سموتريتش، الذين يتحدّثون عن «استقلالٍ ثانٍ» لدولتهم، بالاستيلاء على ما تبقّى من أرض فلسطين.

الدوائر السياسية العربية والإسلامية في الرياض والقاهرة وعمّان وأنقرة وبقية العواصم المعنية، على علم بهذه التحرّكات الإسرائيلية المحمومة تجاه الإدارة الأميركية الجديدة، معطوفةً على ترشيحات ترامب أسماء أركان الإدارة الجديدة، وبالذات وزير الخارجية ماركو روبيو، ووزير الدفاع بيت هيغسيث، ومستشار الأمن القومي مايكل والتز، وهم من الصقور المتشدّدين في عدائهم للصين وإيران، وممّن يثقون بأن أفضل سياسة أميركية تجاه إيران وتجاه الصراع العربي الإسرائيلي هي التي يصوغها وينفّذها نتنياهو، رغم أنه يقود حكومة بلد آخر، وليس مسؤولاً أميركياً. تشكّل هذه التطوّرات تحدّياً سياسياً جسيماً، بخاصّة مع استمرار الحرب الدموية على غزّة وعلى لبنان، ومن دون أن تلوح نهايةً لهذه الحملة التي تُستعرَض فيها القوة والأسلحة الأميركية، على المدنيين والمنشآت المدنية، وبالذات في غزّة المُدمَّرة. ومن المعلوم أن مسؤولين عرباً كُثراً في المشرق سبق لهم التعامل مع ترامب في ولايته السابقة، ويعرفون جيّداً أسلوب تفكيره وطريقته في اتخاذ القرارات باستناده إلى مفهوم الصفقات، وليس إلى المعالجات السياسية. وما دام الأمر كذلك، وبما أن كلّ صفقة تقتضي التفاوض الحاذق على عناصرها، والتمسّك بالحدّ الأدنى من المطالب على الأقلّ، فلتشرع مراكز القرار في الدول المعنية منذ الآن وبالتنسيق التام مع السلطة الفلسطينية والحكومة اللبنانية، بالاستعداد للتفاوض الجدّي مع ترامب وأركان إدارته حول صفقات تضمن الحقوق وتكفل إرساء العدل، وضمن جدول زمني قصير للتنفيذ، مع ضمانات دولية وإقليمية وتصديق الأمم المتحدة على المُخرجات، على أن يبدأ هذا الجهد المشترك بوقف إطلاق النار على غزّة ولبنان، وبإجراءات مؤقّتة لإنهاء الحرب، وصولاً إلى وضع نهاية تامّة للحرب، وهو هدف مُعلَن لترامب، كما لعواصم عربية وإسلامية، وللمكوّنات السياسية الفلسطينية.

(كاتب من الأردن)

كاريكاتير | كيغل كارتونز

ترامب يلتقي بايدن

(كريستو كومارنتسكي، كيغل كارتونز)

لماذا تشتدّ الضربات الإسرائيلية على سورية؟

غازي دحمان

بتواتر كثيف وغير مسبوق، تشنّ إسرائيل ضربات عديدة تكاد تشمل غالبية الجغرافية السورية، ما يجعل الأمر يبدو شبه حرب، أو مقدّمةً لحرب أوسع نطاقاً وشمولاً، ما يطرح السؤال عن الهدف الإسرائيلي من ذلك.

في المُعلَن، تتذرّع إسرائيل بضرب طرق الإمداد اللوجستية لحزب الله. وضمن هذا السياق، تُضرَب المراكز والشخصيات المشغّلة لهذه العملية، أي ضرب بنية كاملة شُكّلت في مدار سنوات طويلة، وتجذّرت بشكل كبير في الجغرافية السورية، وهي بالإضافة إلى ذلك تشمل مواقعَ لإنتاج الأسلحة ومواقعَ خلفيةً لحزب الله، في نطاق يمتد من منطقة القصير في ريف حمص الغربي الى كامل جنوب سورية، درعا والقنيطرة والسويداء. لا تتوقف الضربات الإسرائيلية عند هذا الحدّ، بل تشمل مناطق شرق حلب، حيث لإيران حضور قوي عبر وجود سلسلة من مصانع الذخيرة وتطوير الأسلحة، مثل تلك الموجودة في جبال الساحل، وكانت إيران تعتقد أنها بعيدة عن الاستهداف بسبب بعدها النسبي عن إسرائيل.

وتشمل أيضاً العاصمة دمشق، التي تقيم فيها قيادات حزب الله والحرس الثوري، المشغّلة لهذه البنية، وهي قيادات، ذات اختصاصات استخباراتية ومالية وإدارية، ويبدو أن بعضاً منها انتقل إلى سورية أخيراً بعد استهداف مناطق جنوب لبنان والضاحية، وباتت مسؤولةً بشكل كبير عن إدارة جوانب كثيرة من أنشطة حزب الله بالإضافة إلى تأمين سلاسل الإمداد اللوجستي العابر من إيران إلى العراق. وفق ذلك، الهدف الإسرائيلي الاستراتيجي من زيادة وتيرة الضربات على سورية تحطيم خطّ الدفاع الثاني، والاحتياط الاستراتيجي لحزب الله، وتفكيك الروابط بين الساحتين السورية واللبنانية، وصولاً إلى عزل حزب الله نهائياً عن مراكز الدعم في إيران وتدمير البنية الاحتياطية في سورية. وقد شملت الضربات الفرقة الرابعة التي يقودها ماهر الأسد، التي ترتبط بإيران ارتباطا وثيقاً. يتمثّل الهدف الثاني في ضرب خطوط الدفاع الإيرانية المتقدّمة، وتجريد إيران من أوراق قوتها في المنطقة؛ فالمعلوم أن جيش النظام السوري لا يعتبر فاعلاً ذا وزن مهمّ من دون الدعم الإيراني الدائم، وقد تحوّل في السنوات الماضية إلى مُجرَّد مليشيا بأدوات تصلح لمعارك داخلية أكثر منها لحروب من وزن الحرب مع إسرائيل، وبالتالي فإن ضرب المراكز الإيرانية سينهي أيّ خطر إسرائيلي قد يأتي من سورية لعقود قادمة. لتحقيق هذه الاستراتيجية، تشتغل إسرائيل لتدمير جميع خطوط المواجهة الأمامية المحتملة، في جنوب سورية وغربها، لخلق مساحات آمنة في هذه المناطق، من دون الاضطرار إلى السيطرة العسكرية المباشرة عليها، وهي ذات الاستراتيجية التي تُنفّذ في غزّة وجنوب لبنان، وبذلك تقلّص إسرائيل إلى حدّ كبير مساحات الأمان للعاصمة دمشق والمراكز الحضرية في جنوب سورية ووسطها وغربها، وتنهي بذلك المعادلة التي صمّمتها إيران في العقد الماضي، التي قامت على أساس محاصرة إسرائيل بحلقات النار من أكثر من جهة. تدفع هذه الاستراتيجية النظام السوري إلى الطلب من إيران التراجع عن تكتيكاتها في مواجهة إسرائيل وتغيير الأسلوب القديم، كما تدفع روسيا إلى الضغط على إيران للتوقف عن توظيف الجغرافية السورية في الصراع مع إسرائيل، بالنظر لما باتت تنطوي عليه من مخاطر على النظام السوري، قد تضع الاستثمارات الروسية والإيرانية في سورية ضمن دائرة الخطر، وتؤثّر بشكل كبير في مشاريعهما الجيوسياسية في المنطقة.

والواضح أن إسرائيل تستثمر اختلال ميزان القوى بدرجة كبيرة لمصلحتها في صراعها مع إيران، وانهيار ميزان الردع، الذي طالما أكّدت إيران وجوده في المرحلة الماضية، ويبدو أن الهدف الإسرائيلي من تكثيف ضرباتها في سورية تحطيم معادلة الردع السابقة بشكل نهائي، وجعل إمكانية إعادة بنائها مرّة جديدةً أمراً مستحيلاً، إذ تطمح إلى تثبيت هذا الواقع في وثائق إنهاء الحرب التي ستكون في الغالب بضمانات روسية وأميركية. غير أن هذا السياق يؤشّر إلى أمر آخر، وهو أن إسرائيل تكثّف ضغوطاتها لفرض اتفاق سلام يضمن خضوعاً لما يسمّى «محور المقاومة» لشروط إسرائيل.

(كاتب فلسطيني في فرنسا)

هذا التوجس التركي من اجتياح إسرائيلي لدمشق

عبد الجبار عكيدي

منذ أفصحت الخارجية التركية عن رغبة أنقرة بالتطبيع مع نظام الأسد (أغسطس/ آب 2020)، ما برحت التصريحات التركية تتواتر في الاتجاه نفسه، وعلى مستويات مختلفة، استخبارية ووزارية، وعلى لسان الرئيس التركي نفسه، وكان من الواضح آنذاك أن الخطوة التركية تجاه نظام دمشق كانت حصاد مسعى روسي جاء تتويجاً لمسار أستانة الذي جسّد إطاراً لتفاهمات ثلاثية (روسية تركية إيرانية) في ما يخص الصراع الجاري في سورية، إلّا أن هذا المسار لم يعد معنياً بالشأن السوري إلّا بقدر ما تنعكس تداعياته على مصالح الدول الراعية الثلاث، وانطلاقاً من ذلك، كانت دعوة روسيا إلى تقارب سوري تركي إنما تعني خطوة مهمّة نحو تطبيق حل سياسي للمسألة السورية ولكن من منظور روسي يتخذ من قرار مجلس الأمن 2254 مجرّد مظلة فقط، أما مضامين هذا الحل المفترض، فإنما تستند إلى مخرجات مؤتمر سوتشي (أواخر 2019) التي تختزل القضية السورية بإصلاحات دستورية تفضي إلى إشراك قسم من المعارضة المنتقاة في حكومة الأسد، ولكن مع ذلك، فإن تفاعل نظام الأسد مع مبادرة التطبيع مع أنقرة لم يكن يوازي الحماس التركي، بل ظل الأسد متردّداً بفعل الكابح الإيراني الذي يرى لنفسه الأحقية في هندسة مصير نظام دمشق من جهة، كما يرى لنفسه الأولوية في الاحتفاظ بمصالحه في سورية من دون منافس آخر من جهة أخرى، وبهذا تكون مطالب الأسد لتركيا بالانسحاب من الأراضي السورية شرطاً سابقاً لأي عملية تقارب أو تطبيع بين البلدين ما هي إلّا رغبة إيران باستبعاد أي عملية مصالحة لا تكون طهران هي مطبخها الرئيس.

لم تخفِ أنقرة تطلعاتها من وراء مسعاها للتقارب مع نظام الأسد، إذ إن القيام بخطوة استباقية للتفاهم مع دمشق قد تفضي إلى إبعاد قوات سوريا الديمقراطية (قسد) التي تقودها الذراع العسكرية لحزب الاتحاد الديمقراطي من حدودها الجنوبية، وبالتالي إجهاض الحلم الكردي بإقامة كيان سياسي يهدد أمنها القومي، لهو أولوية ليس لحزب العدالة والتنمية (الحاكم) في تركيا فحسب بل ربما يجسّد شعاراً يداعب مشاعر معظم الشعب التركي.

ولئن أبدت أنقرة، طوال السنوات السابقة، توجساً، بل امتعاضاً شديداً من الدعم الذي توفره الإدارة الأميركية لقوات سوريا الديمقراطية، بحكم التنسيق العسكري القائم بينهما، فإن هذا الامتعاض التركي بدا أكثر تبلوراً وتنامياً منذ أن بدأت إسرائيل حربها على حزب الله في لبنان أوائل سبتمبر/ أيلول الماضي، مع وضوح سعي إسرائيل ليس للإجهاز على حزب الله في لبنان فحسب، بل مطاردة فلول المليشيات الإيرانية في سورية أيضاً، واستهدافها أينما وجدت على الأراضي السورية، الأمر الذي ربما يفضي بالنتيجة إلى اجتياح إسرائيلي قد يطاول قسماً من الأراضي السورية، بل لا تستبعد أنقرة أن يشمل الاجتياح الإسرائيلي دمشق بذاتها، وهذا ما حذّر منه الرئيس التركي أكثر من مرة خلال فترة قصيرة، مُفصِحاً عن أن تداعيات الخطر الإسرائيلي لن تتوقف داخل العمق السوري فحسب، بل ستطاول تركيا أيضاً، فماذا يعني هذا التخوّف التركي؟

ربما يبدو من نافلة القول إن ثقة أنقرة بحليفتها التقليدية (واشنطن) قد تعرضت لتصدعات كبيرة خلال السنوات الماضية، وقد تعززت هذه التصدّعات بالدعم الذي تقدمه الإدارة الأميركية لقسد، ولعل هذه الخيبة التركية من السياسة الأميركية هي ما دفعت أنقرة للتقارب مع روسيا على حساب علاقاتها مع دول الناتو عموماً.

ولعل أكثر ما تخشى منه أنقرة في حال التوغل الإسرائيلي باتجاه دمشق هو التقسيم الفعلي لسورية وقيام كيان علوي في الساحل السوري مجاور للحدود التركية، حيث يوجد على الضفة الأخرى عدد كبير من العلويين الأتراك، سيكون هذا الكيان مدعوماً أيضاً من إسرائيل والغرب، ما يجعل التهديد مضاعفاً، من الجنوب الشرقي الكيان الكردي ومن الجنوب الغربي الدولة العلوية وما يمكن أن يشكلا من تهديد كبير للأمن القومي التركي.

> للمخاوف التركية من وصول إسرائيل إلى عمق الأراضي السورية ما يعزّزها من معطيات

للمخاوف التركية من وصول إسرائيل إلى عمق الأراضي السورية ما يعززها من معطيات، في ضوء ما يصدر من مواقف وتصريحات غربية، لعل أهمها تصريح المبعوث الأميركي الأسبق إلى سورية جيمس جيفري، أخيراً، بخصوص رغبة واهتمام واشنطن وتل أبيب معاً بالتقارب مع النظام السوري، الأمر الذي يثير مزيداً من ريبة تركيا التي لا ترى في أي خطوة أميركية تجاه دمشق إلّا جزءاً من خطر يهدّد مصالحها، ولعل هذا ما يفصح عن فحوى التصريحات التي أدلى بها وزير الدفاع التركي يشار غولمار يوم 13 من نوفمبر/ تشرين الأول الجاري، مُحفّزاً نظام دمشق على استغلال فرصة اللقاء مع الرئيس أردوغان باعتبارها مناسبة لخروج سورية من مأزقها الراهن.

(عقيد سابق في الجيش السوري)

المشكلة ليست في ترامب

عاطف أبو سيف

شكّلت عودة دونالد ترامب إلى البيت الأبيض صدمةً كبيرةً لكثيرين في أوروبا، وفي الشرق الأوسط، وبالطبع للديمقراطيين وغيرهم من النُخَب، خاصّة في الولايات المتحدة. وأثارت عودته، التي يصعب القول إنها غير متوقّعة، صدمةً كبيرةً خاصّة مع ما يحمله في جعبته من مفاجآت للجميع. والمتأمل في مسار الدعاية الانتخابية في آخر شهرَين يمكن له أن يرى عودة ترامب التدريجية إلى المكتب البيضاوي، وباستثناء المناظرة التلفزيونية بينهما، فإن أداء منافسته كامالا هاريس كان أسوأ من أن تكون رئيسة، خاصّةً تردّدها في اتخاذ موقف حاسم في قضايا كثيرة، حتى بدت صدى صوتٍ مبحوح لبايدن العجوز. في المقابل، نجح ترامب، الذي قاتل بكلّ السبل من أجل العودة، في كسب الجميع، حتى الصوت العربي والإسلامي الذي أصرّت هاريس على خذلانه.

وفيما يمكن استشعار القلق بشكل واضح، وإدراك مدى ما تشكّله تلك العودة من أخطار على القضية الفلسطينية ومستقبل الصراع، تظلّ الأزمة فينا وليست في ترامب. ولكلّ الذين يصرّون على المفاضلة بين رئيس ورئيس في واشنطن، عليهم فقط أن يقرأوا تاريخ السياسة الأميركية الذي يصعب فيه أن تجد فروقاً جوهريةً في مواقف الرؤساء، إلّا على صعيد توظيف مواقفهم والتعبير عنها. ويمكن للمرء بيقين أن يستدلّ على غياب تلك الفروق في ظلّ الإدارة العميقة التي تتحكّم بالسياسة الأميركية، تاركةً مساحةً للرئيس فقط في لبس القناع الذي يريد، من أجل أن يمارس دوره ويقوم بوظيفته من دون أن يتجاوز الخطوط العامّة والحمراء. مثلاً، هل تراجع بايدن عن مواقف ترامب التي اتخذها بخصوص القضية الفلسطينية مثل نقل السفارة إلى القدس أو تأييد الضمّ، وغير ذلك؟ ... لو قدّر لترامب أن يفوز بولاية ثانية مباشرةً بعد ولايته الأولى، وهزم بايدن وقتها، لم يكن ليفعل أكثر ممّا فعل بايدن من مواصلة تأكيد وتثبيت القرارات التي اتخذها في فترة ولايته الأولى. لم يقم بايدن بأيّ موقف يمكن أن يُحمَد عليه، ويمكن استذكاره به والترحّم على زمنه. بالعكس، فإن أبشع المذابح في تاريخ البشرية (ربّما بعد الحرب العالمية الثانية وبعد النكبة) تمّت في عهده، وبصمت معيب منه.

من يتوقّع أن يتراجع ترامب عن مواقفه السابقة أيضاً مخطئ، كذلك من يتوقّع منه مواقف أكثر إنصافاً للفلسطينيين، لأن طبيعة الرجل لا تعتمد على التطوّر المنهجي للوعي، بل على التصرّفات العشوائية المفاجئة. لكنه في هذه المرّة يأتي إلى البيت الأبيض وقد قرّر قبل دخوله أن يسلّح نفسه بزمرة من غلاة المعادين للحقوق الفلسطينية، وفيما لا يبدو هذا مريحاً للفلسطينيين، فإنه يعكس حقيقة أن لدى الرجل أيضاً إدارة عميقة غير التي تتحكّم بشكل مستمرّ بالسياسة الخارجية الأميركية تجاه القضايا الكُبرى، إدارة عميقة من نوع مختلف قادرة على جعل إسرائيل بوصلة أيّ تصرّف طائش قد يقوم به الرئيس العائد إلى البيت.

لا يبدو أيّ شخص من إدارة ترامب القادمة خارج نطاق العداء للحقوق الفلسطينية، وربّما سنجد أنفسنا قد اكتشفنا أن ترامب أقلّهم عدائيةً وأقربهم إلينا، للمفارقة بالطبع. انظروا خطّة سفير ترامب السابق لدى إسرائيل ديفيد فريدمان، التي أطلق عليها «الدولة اليهودية الواحدة»، التي يقضي فيها على أيّ أمل لحلّ الدولتَين، ويدعو إلى ضمّ الضفة الغربية، التي لا يعترف بها إلّا بوصفها «يهودا والسامرة»، ويطالب الولايات المتحدة بدعم إنشاء صندوق من أجل تمكين إسرائيل من ذلك. وأقصى ما قد يطمح له الفلسطينيون هو استقلال مدني محدود يخضع للسيطرة الإسرائيلية، فهم لا حقوق جماعية لهم، بل حقوق فردية. وحتى يجنب مشروعه تهمة السعي لتطبيق خطّة قائمة على الفصل العنصري، يقول إن الفلسطينيين سيكونون مقيمين دائمين (على غرار الغرين كارد ربّما)، ولكن من دون حقوق تصويتية، ولا مشاركة في صنع القرار... ليسوا مواطنين. إن «ما منحه الله للشعب اليهودي لا يحقّ لأحد أخذه»، هذه هي خلاصة الكتاب الذي سيكون دليلاً إرشادياً لسياسة ترامب تجاه الصراع.

ساهم أقطاب إدارة ترامب القادمة في التقديم للكتاب، خاصّة وزير خارجية ترامب مايك بومبيو، وكان استخدم عبارة إعادة لحمة إسرائيل مع إرثها التوراتي المهيب في تبريره خطّة فريدمان الإرشادية، كذلك قدّم للكتاب مايك هاكابي، الذي سيكون سفير ترامب الجديد لدى تلّ أبيب، والمعروف بعدائه الصارخ لفكرة الدولة الفلسطينية، وتأييده المطلق لإسرائيل وللاستيطان. قال مرّة للصحافيين: «هناك كلمات أرفض استخدامها، فلا يوجد شيء اسمه مستوطنات، هناك بلدات ومدن، ولا يوجد شيء اسمه الضفة الغربية، هناك يهودا والسامرة». كما أن هاكابي يُستفَزّ من فكرة وجود شعب فلسطيني، ويدافع بشراسة عن الإبادة، كذلك مرشّح وزارة الخارجية ماركو روبيو، الذي وبّخ صحافية لأنها انتقدت قتل إسرائيل للأطفال، وكانوا وقتها 15 ألف شهيد، وقال إنه يطلب من إسرائيل القضاء على «حماس»، لذلك لا بأس في قتل المدنيين، لأن «حماس تحتمي في وسطهم». هكذا بكلّ سفور يدعم الإبادة ويبرّرها. هذا هو شكل إدارة ترامب القادم والمشكلة ليست في ترامب، بل فينا نحن الذين لم نعدّ العدّة لعودته.

> المطلوب تطوير سياسات لمواجهة استعصاء الصراع، والانزياح نحو شطب الحقوق الفلسطينية، لا سياسات للتكيف مع إدارة ترامب الجديدة

سيظلّ موضوع ضمّ الضفة الغربية قائماً، وسيظلّ الاعتراف الأميركي بالضمّ محتملاً، وإن كان ترامب سيستخدمه من أجل كسب المزيد من الالتفاف العربي حول سياساته في المنطقة، بمعنى أن عدم مصادقته عليه سيحتاج أن تدفع الدول العربية الكُبرى ثمناً يستطيع أن يلجم اليمين المتزمّت في إدارته. وللمفارقة سيكون ترامب مثل بنيامين نتنياهو في حكومته محاطاً بأناس يزعمون أنهم أكثر تطرّفاً منه، ويريد لهم هو (نتنياهو) أن يكونوا كذلك، فيواصل سياساته بلا رادع، ويبدو هو الشخص الوحيد الذي يمكن الحديث معه رغم قيادته للإبادة.

ولكن، مرّة أخرى، هل علينا أن ندفع ثمن كلّ شيء؟ من يعتقد أن إسرائيل غير مؤمنة بأن الضفة الغربية هي يهودا والسامرة، وأنها تتصرّف فعلاً بوصفها قامت بالضمّ وإن لم تعلن عنه؟ ... إن التعامل بردّة الفعل على سياسات الاحتلال، وعلى التوجّهات الجديدة لإدارة ترامب، لا يخلق سياسةً قادرةً على الدفع بالمصالح الوطنية والقومية. إن المطلوب هو تطوير سياسات قادرة على مواجهة حالة الاستعصاء في الصراع، والانزياح التدريجي نحو شطب الحقوق الفلسطينية، وليس المطلوب تطوير سياسات للتكيف مع إدارة ترامب الجديدة، ولا محاولة الضغط باتجاه التمسّك بنفس المبادئ السابقة. ثمّة كثير من مفردات السياسة لا بدّ أن تتغيّر. وبقدر تجاوز إدارة ترامب لفكرة الدولتَين (تذكّروا بالنسبة لترامب هذا شيء قديم) بقدر وجوب تجاوزها، وتقديم مقترحات أكثر صلابةً مثل حلّ الدولة الواحدة أو حلّ الدولتَين على أساس قرار التقسيم. الخطاب السياسي العربي ظل طوال العقود الخمسة الماضية أسير توجّه حلّ الدولتَين على أساس الرابع من حزيران (1967)، فيما طوّرت إسرائيل (والعالم) الخطاب تجاه الصراع عشرات المرّات.

(روائي ووزير فلسطيني سابق)

السفير الأميركي لدى إسرائيل في ولاية ترامب الأولى ديفيد فريدمان، نيويورك، يونيو 2024
(نوام غالاي/Getty)

القمة العربية الإسلامية... القرارات لا تكفي

بشير البكر

جاء انعقاد القمة العربية الإسلامية في الرياض، الاثنين الماضي، ليكسر جليد الصمت الذي هيمن على هذا العدد الكبير من الدول تجاه حرب الإبادة الإسرائيلية في غزّة. وقد تكون متأخّرة جدّاً، وبلا نتائج مهمّة، مثل سابقتها التي التأمت في المكان والتاريخ نفسيهما قبل عام، لكن انعقادها أفضل من استمرار الحال على ما هو عليه من عجز وتنكيس للرؤوس في الرمال. ويشكّل اللقاء في حدّ ذاته مناسبةً لتحريك القضية، حتى لو لم تُحلّ، من دون أن يُعفي هذا أحداً من الحاضرين من المسؤولية السياسية والأخلاقية، والاكتفاء بالحدّ الأدنى، المتمثّل بالدعوة إلى وقف إطلاق النار في قطاع غزّة، وفي لبنان، وإصدار بيان يطالب مجلس الأمن بقرار ملزم لوقف إطلاق النار، وإدخال المساعدات الإنسانية فوراً، وتحميل إسرائيل مسؤولية فشل المفاوضات.

تعمل الأمم المتحدة منذ عام وحدها من أجل وقف الحرب الإسرائيلية على غزّة، وتسهيل وصول المساعدات الإنسانية، ومواجهة الإجراءات الإسرائيلية لمنع عمل مؤسّساتها الأممية في القطاع، وخاصّة وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (أونروا)، التي اتّخذت اسرائيل قراراً رسمياً بحظرها، ومنع أمينها العام من دخول الأراضي الفلسطينية المحتلّة، ولذلك تحتاج المنظّمة الدولية إلى من يقف بجانبها، ويدعم جهودها ومبادراتها، ويساند مساعيها التي تواجه رفضاً إسرائيلياً و«فيتو» أميركياً طيلة عام، ومن شأن الموقف العربي الإسلامي أن يشكّل قوةً دافعةً لها، ويسلّحها بورقة قوة في مواجهة السياسات الإسرائيلية، خاصّة أنها مطالبةٌ بالعمل لترجمة دعوة القمة لإصدار قرار ملزم بوقف الحرب.

عدم تحرّك العرب والمسلمين من أجل ترجمةً قرارات القمة السابقة، التي انعقدت في الرياض من أجل غزّة، ترك الساحة الدولية فارغةً أمام إسرائيل، التي لم تواجه ضغطاً دولياً فعلياً يجبرها على وقف حرب الإبادة، ويكمن القصور في أن قرارات القمة السابقة لم تضع آليةً من أجل تنفيذها، وخاصّة على مستوى تحدّي الحصار الإسرائيلي، ومُجرَّد عقد القمة أخيراً يعبّر عن استيعاب هذا الدرس، لكنّ العبرةَ تكمن في الاستفادة منه، وذلك باتخاذ خطوات جريئة لنجدة أهل غزّة، الذين يواجهون حرب إبادة وتجويع من أجل دفعهم إلى الهجرة إلى الخارج، وتؤكّد ذلك الإجراءات العسكرية الجارية في شمال قطاع غزّة، من أجل تفريغه من سكّانه بصورة نهائية، تمهيداً لاستيطانه من جديد.

لا يكفي أن يلتقي العرب والمسلمون من أجل غزّة ولبنان ويلقوا كلمات، تندّد بجرائم إسرائيل ومخطّطاتها التوسّعية، وتتضامن مع شعبي غزّة ولبنان، كما ليس بالبيانات يمكن دفع إسرائيل إلى وقف الحرب، بل بالانتقال من الكلام إلى الفعل، وهذا يتطلّب مواقفَ جادّةً من بعض دولها مثل مصر، قبل التحرّك نحو الدول المؤثّرة وفي طليعتها الولايات المتحدة وأوروبا وروسيا والصين، من أجل التوصّل إلى موقف ضاغط على إسرائيل يوقف الحرب قبل كل شيء، وما لم يبادر العرب والمسلمون، ويطبّقوا قراراتهم على أنفسهم، ستبقى البيانات حبراً على ورق، وسينسى العالم مؤتمرهم، مثلما حصل لمؤتمرهم السابق، الذي لم يساعد في وقف الحرب. الوضع في منطقة الشرق الأوسط على درجة عالية من الخطورة، وما لم تُوقَف إسرائيل عند حدود القانون الدولي، فإنها سوف تتمادى أكثر، وتذهب في حربها أبعد ممّا هي عليه اليوم، وعندئذ لن تقف الكوارث عند حدود فلسطين ولبنان، بل ستمتدّ إلى العديد من البلدان العربية، وستشهد المنطقةُ انهياراتٍ تعقبها انفجاراتٌ وحروبٌ وتغييرٌ في الخرائط، ومن هنا يشكّل اللقاء العربي الإسلامي فرصةً مهمّةً، قبل أن يتأخّر الوقت، ويغرق العالم العربي في فوضى، تكون إسرائيل المستفيد الوحيد منها.

جدعون ساعر وحلف الأقلّيات

بيار عقيقي

لم يتردّد وزير الخارجية الإسرائيلي، جدعون ساعر، في الكشف عن مآل الأهداف الإسرائيلية المستقبلية، المتعلّقة بما يُمكن إدراجه في إطار «حلف الأقلّيات». كلامه منذ أيام أن «الأقلّيات في المنطقة ستحتاج إلى التماسك معاً»، مشيراً خصوصاً إلى الأكراد والدروز، ترجمةٌ لرؤية رئيس وزرائه بنيامين نتنياهو عن «تغيير الواقع الاستراتيجي في الشرق الأوسط»، كما قال في سبتمبر/ أيلول الماضي. ومثل هذه الرؤية عن «حلف الأقلّيات» في شرق أوسط مشتعل كفيل بدفع أيّ نوع من الأفكار العابرة للطائفية والمذهبية والقومية إلى خارج نطاق الحلول الممكن تطبيقها في تلك المنطقة من العالم. الأمر أشبه بـ«سايكس بيكو» جديدة، لكن هذه المرّة بوجودٍ إسرائيليٍّ كامل، مُحفَّز بفعل تراكمات العصبيات المتناحرة التي سادت طوال عقود في قلب عديد من أنظمة دول الشرق الأوسط التي كانت قاطرةً فعليةً لأيّ تدخّل من خارج الإقليم فيه، لا العكس، كما يحلو للكثيرين ترداده.

ليس ما قاله ساعر جديداً في فكر الإسرائيليين، الذين سعوا في مرحلة ما في السودان (حين كان موحّداً) إلى دعم جنوبه في مواجهة شماله. كما حاولوا استيلاد تقاطع سياسيٍّ وجغرافيٍّ مع ثلاث من أبرز طوائف لبنان، الموارنة والدروز والشيعة. غير أن الإسرائيليين اليوم يحاولون ترجمة هذه الفكرة، وإن كانت في سياق مباشر موجّه إلى تركيا وإيران، في ما يتعلّق بالأكراد، من أجل إحداث صدمة ما بعد «الربيع العربي»، والعمل على إقناع شعوب المنطقة بأن نموذج «يهودية الدولة في إسرائيل» هو المفتاح . الحلّ لأقلّيات هذا الشرق. وضمن هذا التسلسل، يُصبح من السهل عودة خرائط الأقلّيات إلى البروز في النقاشات المقبلة، والتصرّف بموقع ردّ فعل بدلاً من اتخاذ المبادرة.

المبادرة حالياً في الدول المعنية بشكل مباشر وغير مباشر بكلام ساعر متعلقة بثوابت أساسية، تنبع أولاً من الخروج من نمطية التمييز بين أكثرية وأقلّية، خصوصاً إذا كانت لاعتبارات دينية. الثابتة الثانية، عدم إشعار الأطراف التي تعتقد نفسها أقلّيةً بأنها «تحت الحماية» لأنها قليلة العدد، فيما هي جزء لا يتجزّأ من مجتمعات الشرق الأوسط، وليست وافدة إليه. الثابتة الثالثة، الخروج من الاعتقاد بأن «الانتهاء من الأقلّيات يعني انتهاء المشاكل الداخلية». ليست الأقلّيات ولا الأكثريات من تستنبط الخلافات الداخلية، بل إن المصالح المتشابكة والمتباعدة هي ما تؤدّي إلى إسقاطات النوازع الخلافية على الجماعات المُكوِّنة لوطن ما. يشبه هذا الأمر ما فعلته ألمانيا النازية، ثمّ النمسا تحت حكم النازيين، باليهود أنفسهم، حين حمّلوا مسؤولية التدهور الاقتصادي في ألمانيا، ثمّ وصلنا إلى المحرقة والإبادة.

منطق التمييز السائد في عديدٍ من زوايا الشرق الأوسط لن يُفضي سوى إلى منح ورقة رابحة لإسرائيل للقيام بالحدّ الأدنى ممّا تسعى إليه بدعوتها إلى «حلف الأقلّيات»، وهو إثارة الفتن الداخلية، وصولاً إلى حروب أهلية متنقّلة. هل يمكن تجاوز ذلك في ظلّ وجود صواعق متفجّرة متنقلّة في لبنان والعراق وسورية بشكل خاص؟... لا شيء لا يمكن تجاوزه، غير أن ذلك يستدعي عملاً جبّاراً بين مكونات الدول الثلاث، ينبثق من «وقف العدّ»، أي الانتهاء من تحويل الأفراد في كلّ مجتمع إلى جزء من منظومة مرقّمة تابعة لطائفة أو إثنية. قد يبدو مثل هذا القول مثالياً أو خارج السياقات الواقعية، فيما أنه سيُتداول لاحقاً في انفجار البركان الطائفي في الإقليم، بالتالي فلا بدّ من المسارعة إلى تطويق ما يسعى إليه ساعر، وإلّا فإن فتائل الصواعق ستلهب بيروت ودمشق وبغداد. الغريب أن الأمر لا يتطلّب نقاشاً عن بناء نظام جديد، بل حصراً إجراء تعديلات فكرية واجتماعية وسياسية، تسمح بإزالة أيّ محاولة إسرائيلية لزرع الشقاق بين أقلّيات وأكثريات الشرق الأوسط. عكس ذلك، لن يكون سوى تكاذب من نوع «أننا أبناء بلد واحد ونعشق تعايشنا»، وينتهي الأمر بصورة في الإنترنت.

تدميرٌ لا يُؤتي فاعلَه نصراً

جورج كعدي

متى أظهر الكيان الصهيونيّ الفاشيّ، على مرّ تاريخه الأسود، أنّه بطلٌ في مواجهات الميدان؟ في أيّ حرب خاضها مع دول الطوق أفصح عن شجاعة وإقدام في برّ المعارك؟ ألم يكن الطيران الحربيّ أميركيّ الصنع (تُحلّق به وتقوده «صفوةٌ « من غير البشر) هو الرافعة لحروبه قصفاً ومجازر وتدميراً؟ جيش هذا الكيان - البلاء هو الأفضل تجهيزاً والأفشل أداءً، أُنشئ عديداً وعتاداً للترهيب بضخامته واستعراضيته، ولوظيفة القتل لا القتال، في حين يتولّى سلاح الطيران المسعور كامل المهمّة بالنيابة عنه، تدميراً للمدن والقرى فوق رؤوس قاطنيها، وارتكاباً لأفظع المجازر التي تتحوّل مع الأيام أفعالاً إباديّةً يشهد عليها العالم بأسره، ويشاهدها في نقل حيّ.

يرى ذوو النفوس الضعيفة، المنظّرون من بُعد، ومن خارج ميادين المواجهات ومقاوماتها البطلة، أنّ غزّة هُزمت بمُجرَّد أنّها دُمِّرت، وأنّ المقاومة في لبنان خسرت إذ دُمِّر جزءٌ كبير من جغرافية بيئتها الحاضنة واغتيلت قياداتها، وأنّ كتلة الحديد والنار الإسرائيلية لا تُقاوم ولا تُردّ، وأنّ المدعوّة «إسرائيل» انتصرت وحقّق بنيامين نتنياهو مُناه وأهدافه، ولم يبقَ له سوى إعلان النصر الناجز! الانهزاميون هؤلاء، ليتهم يدلّوننا على النصر المتحقّق للكيان، هنا وهناك. ففي غزّة، حيث انتصر السيف على الدم حقيقةً لا مجازاً، ما برح المقاومون المدهشون الأبطال يقاتلون ببأس منقطع النظير، ويصطادون الجنود والضباط والآليات، ويخوضون منذ 11 شهراً ونصف شهر قتالاً ميدانياً أذهل العالم، ويدعمهم في ذلك شعب أسطوريّ لم يعرف تاريخ البشرية شعباً مماثلاً له في الصبر على الموت والجوع والعطش والمرض والنوم في العراء، والنزوح القاسي المستمرّ على الأقدام من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، ولم يحتشد حتى الساعة، رغم الآلام والمعاناة التي لا يحتملها بشريّ، عند حدود معبر رفح طلباً للجوء إلى مصر، بمئات الآلاف، هرباً من شدّة ما يقاسي، بل على العكس، لم يُظهِر هذا الشعب العظيم إلّا تمسّكاً بالأرض حتى الشهادة. والأمر شبيه اليوم في لبنان، حيث تتكرّر مأساة غزّة، وبأداة الجبن الإسرائيلية نفسها؛ غارات للطيران الحربيّ المحلّق عالياً بإجرامه وبهيميّته الإلكترونية مخلّفاً مع كلّ طلعة (نزهة جوية قاتلة) مأساةً إضافية في الأرض، دماراً وشهداء وجرحى. والرهان الصهيوني في الميدانين هو دائماً وأبداً على التدمير، لعلّه يقضي على معنويات الشعب والمقاومين معاً، ويُفضي بهم إلى الوهن والاستسلام. وحتى الساعة، ما زال جيش الصهاينة يراوح عند قرى الحافّة الأمامية في الجنوب اللبناني ويُقتَل منه العشرات.

أضحى هذا النهج التدميريّ للكيان الصهيونيّ الفاشيّ عقيدةً عسكريةً تُعرَف منذ حرب 2006 في لبنان بـ«عقيدة الضاحية»، وقد تكرّست على لسان قائد الأركان الأسبق لجيش الاحتلال غادي آيزنكوت خلال عدوان 2008 على غزّة، إذ صرّح آنذاك بأن كيانه سيتعامل مع أيّ منظّمة تدعم أعداء الكيان باعتبارها «ميدان حرب شرعياً ستستخدم فيه القوة القصوى لتدمير البنية التحتية وتحقيق الردع». «عقيدة الضاحية» (التي تستمدّ اسمها من ضاحية بيروت الجنوبية التي دمّر الطيران الإسرائيلي جزءاً منها في حرب 2006 قبل أن يُعاد بناؤها لاحقاً، وكما سيتحقق في المستقبل الآتي) تقوم على تفعيل القوة النارية الإسرائيلية على نحو غير متكافئ أو غير متناسب، والتدمير الكامل للبنى التحتية للمدن والبلدات والقرى تحت حجّة أنها تُستخدَم منصّاتٍ لإطلاق الصواريخ، واعتماد العقاب الجماعي، الذي يهدف إلى إيقاع أكبر أذىً ممكن وأضرار بالمدنيين، والاستخدام المكثّف للقوة الجوية التي تمنح الكيان العنصريّ الفاشيّ سيطرةً عسكريةً وتفوّقاً على الخصم، واغتيال شخصيات وقيادات معدّة القوائم سلفاً، قبل خوض التدمير، وتطبيق سياسة الأرض المحروقة لجعل المناطق المستهدفة غير صالحة للسكن. يكاد الخبراء العسكريون يجمعون على أن الطيران الحربيّ المُدمِّر لا يحسم حرباً أو معركة. أسطع مثالين في التاريخ المعاصر غير البعيد ستالينغراد وفيتنام الشمالية. فلا دمار يمكن تشبيهه بدمار غزّة أكثر من دمار ستالينغراد في الحرب العالمية الثانية، الذي لم يأتِ لجيش هتلر بالنصر، بل بالهزيمة التامّة لمشروعه النازيّ الجنونيّ. ولم يُلقَ في التاريخ الحديث كمٌّ من قنابل النابالم يضاهي ما أُلقي على فيتنام الشمالية بواسطة الطيران الحربي، لتنتصر المقاومة الفيتنامية في النهاية على الجيش الأميركي في المستنقع البرّي، حيث تكبّد خسائر فادحة ومرعبة كان لها دويّ الهزيمة الكبرى داخل المجتمع الأميركيّ. وباستعادة معركة ستالينغراد التاريخية، نرى أن هذه المدينة السوفياتية (على نهر الفولغا) تعرّضت لقصف مكثّف من سلاح الجو الألماني تمهيداً لتقدم القوات البرية الألمانية إلى ضواحي المدينة بحلول أغسطس/ آب 1942. قُصِفت ستالينغراد بقنابل حارقة في 1600 طلعة جوية لتحدث دماراً هائلاً وكاملاً في المدينة التي بلغ عدد ضحاياها من المدنيين نحو سبعين ألفاً ومائة وخمسين ألف جريح. دمّرت وأحرقت المصانع والمنازل والمدارس، وغطى الدخان الأسود الشبيه بالبركان سماء المدينة، وارتفعت ألسنة اللهب العملاقة من حاويات تخزين النفط الضخمة، التي انسكبت محتوياتها من النفط المحترق في نهر الفولغا. سرعان ما تحوّلت المدينة إلى أنقاضٍ وأطلالٍ عمران، كأنّ إعصاراً رفعها في الهواء وحطّمها مرّة أخرى مليونَ قطعةٍ. ومن أبرز الأسباب التي تُعزى إليها هزيمة الجيش الألماني في المدينة ذاك العائق التي مثّله «الجنرال ثلج»، الذي سبق أن هزم جيش نابوليون بونابرت في معركة موسكو. فقد تسبّب البرد والجوع في إنهاك الجنود الألمان، وتعطّلت آلياتهم ومدرعاتهم لنقص الوقود، فضلاً عن النقص في الذخيرة، بالتزامن مع اشتداد هجمات الجيش السوفياتي الذي كان يسعى بقوة وبسالة في أرضه لإنهاء الوجود الألماني في المدينة، وبدا هتلر كأنه المتسبّب في هزيمة قواته، إذ أمرها بالثبات مهما كلّف الثمن، مع وعد بالمزيد من المؤن والإمدادات عبر الجسر الجوي، واستقدام مزيد من القوات لكسر الحصار على المجموعة الأولى في المدينة. لكنّ مع مخطّطاته التي أعطيت اسم «عاصفة الشتاء» (إطلاق التسميات إرث نازيّ في الكيان الصهيوني)، أخفقت عمليات التموين عبر الجو، ما أدّى إلى الانهيار التام للجيش الألماني السادس، الذي اضطرّ قائده فريدريك باولوس إلى الاستسلام في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني 1943، ومعه معظم قوات جيشه، رغم مواصلة بعض أفراده القتال، حتى تمّت تصفية الجيش بأكمله. تلك المعركة التاريخية الحاسمة في المدينة المدمَّرة استمرّت نحو 200 يوم وقضت على الحلم النازيّ برمّته.

> الرهان الصهيوني في غزّة ولبنان هو دائماً وأبداً على التدمير، لعلّه يقضي على معنويات الشعب والمقاومين معاً
>
> لا يحسم الطيران الحربيّ المُدمِّر حرباً أو معركةً، وأسطع مثالين في التاريخ المعاصر ستالينغراد وفيتنام الشمالية

ستالينغراد المدمّرة بالأمس مثل غزّة اليوم، جلبت للشعب الروسي، بل للعالم أجمع، النصر الحاسم والنهائيّ على الجيش النازيّ «الذي لا يقهر» آنذاك. قد تجلب غزّة البطلة نصراً مشابهاً للشعب الفلسطيني. مثالُ فيتنام ليس بعيداً عن غزّة أيضاً، بل لعلّه أقرب لناحية الأنفاق، فلمواجهة الغازي الأميركي، لجأ المقاومون الفيتناميون الشماليون إلى حفر أنفاق سرّية هائلة تحت الأرض جعلت الجيش الأميركي في جحيم لا يطاق (عبّر عنه أوليفر ستون في فيلم «الفصيلة»، وكوبولا في «القيامة الآن»). في إبريل/نيسان 1969، قُدّر عدد الجنود الأميركيين في الأراضي الفيتنامية أكثر من نصف مليون عسكري، اضطروا إلى مواجهة قوات الفيتكونغ، التي تميّزت بخبرتها في حرب العصابات والاختباء في الغابات (مثل قوات حزب الله اليوم في جنوب لبنان). استمرّت هذه الحرب أكثر من عقدين من السنين مارس فيها الأميركيون، قبل الخروج بهزيمة نكراء (58 ألف جندي قتلوا، عدا آلوف المعوّقين) فائق وحشيتهم، التي ارتبطت بقنابل النابالم الحارقة، والتي أمست محرّمة عالمياً لاحقاً.

معظم الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة في القرن الماضي والقرن الحالي، ومثلها ربيبتها المدعوّة «إسرائيل»، لم تسفر عن نتائج حاسمة ومطلقة، سوى ربّما لناحية تدمير المدن والبنى التحتية، من حرب العراق إلى حرب أفغانستان، مروراً بلبنان وغزّة وسورية. بات خصوم هاتين القوّتين الباغيتين، من المقاومات تحديداً، يمتلكون أدواتٍ تمنعهما من تحقيق انتصار حاسم، رغم التدمير الهائل من أجل إحداث ما يسمّى «الصدمة والترويع» لكسر إرادة الشعوب المقاومة، والتأثير النفسي في الجمهور الحاضن. لكن مع كلّ عدوان مجرم يقدم عليه الكيان الصهيونيّ، أو سيّده الأميركيّ، أو كلاهما معاً بالتكافل والتضامن، ينتهي الأمر إلى استيعاب الصدمة، وردّ العدوان، وحرمان المعتدي نصراً حاسماً وسريعاً، بل جرّه إلى حرب استنزاف ليست في مصلحته على الإطلاق. ومع امتداد الاستنزاف، تتضاءل شيئاً فشيئاً مفاعيل التدمير الذي يفتتح الأسابيع الأولى للعدوان قبل الدخول في المواجهة البرية، على ما حصل ولا يزال في غزّة ولبنان، حيث يسجّل المقاومون الأبطال ملاحم أسطورية وسط دمار منتهي المفعول والصلاحية.

(كاتب وأكاديمي لبناني)

تركيا ومرحلة جني الثمار بين دمشق وواشنطن

يمان دابقي

في مقابلة مع صحيفة كوبار بار التركية، في 13 نوفمبر/ تشرين الثاني الحالي، أطلق وزير الدفاع التركي، يشار غولر، تصريحاتٍ أثارت جدلاً كبيراً لدى الأوساط السورية، لما تحمله من رسائل مهمّة حملت أكثر من تفسير. إذ قال إنّ الجيش السوري الحرّ سيكون جزءاً من مستقبل الجمهورية السورية، وإن على بشّار الأسد أن يقيّم تقييماً جيّداً عندما يتحدّث الرئيس التركي رجب طيّب أردوغان، وأن يأخذ كلام الأخير على محمل الجدّ في موضوع التطبيع، فيستفيد من الفرصة المواتية، التي وصفها بـ«الإيجابية للدولة السورية»، التي تفتقر إلى «القاعدة الشعبية»، وشدّد الوزير على أن قواته المنتشرة في سورية لن تنسحب قبل تحقيق «معادلة الأمن القومي التركي».

اللافت أنّ تصريحات غولر تزامنت مع جرعة جديدة من غزل الرئيس التركي لبشّار الأسد، فبُعيد انتهاء مؤتمر القمة العربية والإسلامية، الذي نظّمته السعودية (11 نوفمبر/ تشرين الثاني الجاري)، قال أردوغان إن على الأسد أن يدرك أنّ وحدة سورية ليست مهدّدة من السوريين، وأن تطبيع العلاقات مع دمشق سيفتح الباب أمام السلام والهدوء في الأراضي السورية، مذكراً الأسد بأن التهديد الإسرائيلي لسورية ليس قصّةً خيالية. كما لم يُغفِل أردوغان التذكير بعزم تركيا استئناف عملياتها البرّية لتأمين الحدود، وإنشاء المنطقة الآمنة في كلّ من سورية والعراق.

دفعة كبيرة من التصريحات جاءت من أعلى هرم السلطة، ورسائل وصفها بعضهم بـ«الأخيرة» لرأس النظام السوري قبل فوات الأوان، وقبل دخول المنطقة مرحلةَ التسويات في حقبة ترامبية جديدة، تنتظر مرحلة التفعيل لحظة دخول الرئيس الجديد، دونالد ترامب، البيت الأبيض (يناير/كانون الثاني 2025). الأمر الذي طرح تساؤلات عن نيّاتٍ تركيّةٍ جاءت هذه المرّة بسقف مرتفع، وممهّدةً لاتخاذ قراراتٍ حاسمةٍ في الملفّ السوري. فما الذي تسعى إليه في ظلّ التطورات الجديدة في الساحة الدولية، التي بدأت منذ انطلاق «طوفان الأقصى» في السابع من أكتوبر (2023)؟ وهل ستنجح أنقرة في نزع مكاسبَ سياسيةٍ كانت عجزت عن تحقيقها في حقبة الديمقراطيين الأميركيين (إدارة جو بايدن)، وهل رفع سقف أهدافها مستند إلى مجيء من وصفه أردوغان بالصديق دونالد ترامب فقط، أم أنّها ستعود إلى سياستها القديمة في حقبة ترامب الأولى في تحقيق توازن في علاقاتها الخارجية التنافسية بين واشنطن وروسيا؟

> مع ترامب ترى أنقرة أن موسم جني الثمار قد اقترب، وتريد تأمين كامل مصالحها في سورية، سلماً أو بالقوة

المُتّتبع للسياسة التركية يعلم جيداً أن تطوّرات جديدة دخلت السياسة التركية الداخلية والخارجية منذ العام 2016، بعد محاولة الانقلاب الفاشلة، وإسقاط أنقرة الطائرة الروسية، إذ استدارت تركيا من الغرب إلى الشرق، واعتمدت سياسة تصفير المشاكل مع السعودية ومصر والإمارات، ومدّت جسوراً كثيرةً نحو روسيا في مجالات سياسية وطاقوية، وانتزعت مكاسبَ في ليبيا، وفي ناغورنو كاراباخ ونيجيريا والعراق، وحتى في أوكرانيا في ملفّ نقل الوساطة ونقل الحبوب. لكنّ سورية كانت الأكثر أهميةً، إذ استطاعت أنقرة شنّ ثلاث عمليات برية لتأمين حدودها الجنوبية، آخرها كانت في حقبة ترامب الأولى (عملية نبع السلام 2019). مع ذلك، لم تستطع أنقرة أخذ ما تريده آنذاك، فبقيت مدينة منبج السورية ملفّاً معلّقاً، ولم يُطبَّق الاتفاق الذي وقّعته آنذاك مع إدارة ترامب لإكمال مشروع الحزام أو المنطقة الآمنة، وفشلت في إقناع الإدارة الأميركية بكفّ يدها عن دعم ذراعها في شرق الفرات، «قوات سوريا الديمقراطية» (قسد). حتى موضوع انسحاب القوات الأميركية، الذي قرّره ترامب في 2020، تراجع عنه بعد ضغط من مجلسَي الشيوخ والنواب، وتعرّضت تركيا لحزمة عقوبات اقتصادية ومالية بعد التوتّر الذي حصل في قضيّة القسّ برونسون. مع ذلك، ظلّت تركيا طيلة السنوات الماضية تناور، وتحافظ على خطّ التوازن بين إدارة بايدن المنتهية ولايته، وروسيا التي دخلت في الوحل الأوكراني، ونجحت أيضاً في الحفاظ على مصالحها في الشمال السوري، وفي الهدوء ضمن مسارَي أستانة وسوتشي مع كلّ من إيران وروسيا.

الخطوة الوحيدة التي أجرتها في الملفّ السوري طيلة فترة الديمقراطيين هي فتح مسار تطبيع العلاقات مع النظام السوري منذ العام 2022، الذي تعرّج بسبب تعنّت الأسد ورفضه النزول أمام المطالب التركية، حتى بات أردوغان يطلب لقاء الأسد، في أكثر من مناسبة تحت رعاية روسية، لكن خفتت وتيرة هذا المسار بعد عمليات إسرائيل العسكرية ومجازرها في غزّة ولبنان، وتغيّرت مع هذه التطوّرات حسابات اللاعبين الفاعلين في الملفّ السوري، بمن فيهم روسيا، التي صرّحت قبل أسبوعين (بحسب قناة روسيا اليوم) بإيقاف مسار التطبيع بين أنقرة ودمشق، معلّلة ذلك برفض تركيا تلبيةَ شرط النظام السوري بتحديد جدولٍ لانسحاب قواتها من سورية، كما طلبت من العراق إيقاف وساطته لتقريب وجهات النظر بين الطرفَين.

من المهم التذكير بسبب إصرار تركيا على تطبيع علاقاتها مع دمشق، فبعد نجاحها بعقد سلسلة اتفاقيات مع الجانب العراقي، فيما يتعلّق بمكافحة حزب العمّال الكردستاني، وشنّها عمليات برية حتى السليمانية في داخل العراق، سعت أنقرة إلى جلب النظام السوري، الفاقد لمقوّمات السيادة والبقاء كلّها، لوضعه تحت عباءتها، ونزع شرعية منه في بقاء قواتها في الشمال السوري، وتحقيق تعاون مشترك مع قوات النظام، أمني واستخباراتي، في قتال «قسد» وطردها من شريطها الحدودي، عبر الاستناد إلى اتفاقية أضنة 1988، وتعديلها لتسمح لها التوغّل في الشمال السوري لتحقيق المنطقة الآمنة برضا الأسد، إضافةً إلى رغبة تركيا في فتح الطرق التجارية لإنعاش حركة الاقتصاد، وتوفير بيئة آمنة لعودة اللاجئين السوريين، بعد تهيئة الظروف المناسبة بالتعاون مع الأسد، ووضع قدم لها في ملفّ الإعمار للشركات التركية، وقد كان فتح معبر أبو الزندين، إلى جانب معبر كسب، والتلميح بفتح معبر سراقب، بوادر حسن نيّة من تركيا. وكانت روسيا لاعباً مؤثّراً في تحقيق رغبات أنقرة بناءً على جملة المصالح المشتركة مع تركيا في ملفّات تتعدّى الجغرافية السورية. العائق الوحيد لما سبق كلّه كانت إيران، التي فرضت نفسها رقماً صعباً في سورية لأنها الطرف الأكثر فعّالية من خلال مصادرتها القرار السوري، وتوغّلها داخل مؤسّساته الأمنية والاقتصادية والمالية.

المعادلات المعقدة في سورية، وحالة التداخل بين مصالح اللاعبين، تعرّضت لصدمة بعد الزلزال السياسي الذي جاء مع «طوفان الأقصى»، واستلام إسرائيل بقيادة مجرم الحرب بنيامين نتنياهو دفّة القيادة في كامل الشرق الأوسط، وتحت غطاء ودعم من قبل الديمقراطيين الأميركيين، إذ جرت تغييرات في حسابات اللاعبين بعد تعرّض مصالحهم لجملة من المهددات والأخطار. روسيا وتركيا كانتا الأكثر استشعاراً بطبيعة التغييرات المقبلة إلى المنطقة، لا سيّما بعد توسيع رقعة الحرب لتطاول لبنان وسورية، وإصرار إسرائيل على تغيير شكل الشرق الأوسط بما يتناسب مع محدّداتها الأمنية الجديدة، ومشاريعها الاستعمارية. الحدث الثاني، الذي سرّع تقييم حسابات روسيا وتركيا، هو فوز دونالد ترامب، وعودته قريباً إلى البيت الأبيض.

كان الرئيس التركي أوّل من هنّأ ترامب بفوزه عبر مكالمة هاتفية، مذكّراً ترامب بمخاوف أنقرة الأمنية من مهدّدات «قسد»، ومن انسحاب القوات الأميركية من شرق سورية من دون التنسيق معها، وبملفّ المنطقة الآمنة التي رُسِمت ملامحها الأولى في حقبة ترامب الأولى. في حقيقة الأمر تتطلّع تركيا بإيجابية لمجيء ترامب، وتعتقد أنّه رئيس يمكن التفاهم وعقد صفقات معه، مقارنةً بتجربتها السالبة مع نظيره جو بايدن. لأجل ذلك رفعت أنقرة سقف أهدافها قبل وصول ترامب، وبدأت بالتمهيد وتهيئة الأجواء لها، عبر التودّد للجمهوريين، وتطمح لأن يكون الانسحاب الأميركي المتوقّع في شرق سورية بالتنسيق معها قاطعاً الطريق على أذرع إيران و«قسد» لملئ الفراغ. كما تتعطّش لعقد صفقة أخرى مع إدارة ترامب في استكمال المنطقة الآمنة بعمق 30 – 40 كلم، ونزع مناطق تل رفعت، وعين العرب (كوباني) من «قسد»، وتريد أن يحدث ذلك بالتعاون مع النظام السوري عبر مسار التطبيع، بدلاً من فرض الأمر عليه بالقوة. وتعتقد أنقرة أنّ النظام السوري بعد إضعاف إيران، وذراعها في لبنان حزب الله، ومجيء دونالد ترامب إلى سُدّة البيت الأبيض، ستكون خياراته شبه صفرية، خصوصاً بعد تعيين ترامب مارك روبيو، صاحب المواقف الحازمة ضدّ النظام السوري، وزيراً للخارجية.

ما سبق كلّه يضعنا أمام ملامح استراتيجية تركيا الجديدة في سورية، وإن بدت أهدافها بسقف مرتفع، إلّا أنها ترى أن موسم جني الثمار قد اقترب، وتريد تأمين كامل مصالحها في سورية، سلماً أو بالقوة، بعد تأكّدها من مشروع خبيث تقوده إسرائيل في المنطقة، يبدأ بتفتيت سورية إلى أقاليم عرقية، وقد لا ينتهي بتهديد عمق الأناضول، وتأليب الأكراد في جنوب تركيا، بعد تصريحات خطيرة لوزير إسرائيلي أخيراً وصف فيها الأقلّيات حلفاءَ حقيقيين لإسرائيل، في الإشارة إلى استمرار دعم إسرائيل الأكراد في سورية ورقةَ ابتزاز ضدّ تركيا. تبدو المهمّة صعبةً أمام تركيا بالنظر لمسار الصعود والنزول في علاقاتها مع الولايات المتحدة، فهل ستستفيد من دروس الماضي لتحقيق أهدافها في حاضر ومستقبل المنطقة، وتفرض نفسها لاعباً في الساحة الدولية، وضمن النظام الدولي الجديد، أم أنّ ترامب قد يُفاجئها بفخاخ سياسية غير متوقّعة وغير محسوبة؟

كلام وزير الدفاع التركي غولر عن الجيش السوري الحرّ، لا يخرج من التفسير السابق في رغبة أنقرة بدمجه في قوات النظام، ضمن مسار تطبيع العلاقات، وهذا الكلام أكّده موفد أنقرة في جولة أستانة أخيراً، أحمد طعمة، حين استفاض كثيراً في الكلام عن فوائد التطبيع بين أنقرة ودمشق، متجاهلاً دماء السوريين وتضحياتهم.

(كاتب سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **معن البياري** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads